

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ

مِنْ

أَضْوَاءِ الْبَيِّنَاتِ

تأليف

الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار
ابن بكين الشنقيطي

إعداد

أ.د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي
أستاذ الإعلام الإسلامي بكلية الدعوة
والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الهدى النبوي

مصر - المنصورة

دار الفضية

الرياض - السعودية

قوله تعالى: ﴿أَفِعْدَابًا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٧﴾﴾ .

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَتَعْبِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثَلَّثُ﴾ [الرعد: ٦]، وذكرنا بعض الكلام على ذلك في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿أُنْعَرُ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِئِنَّ﴾ الآية [يونس: ٥١]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ . ختم هذه السورة الكريمة بالسلام على عباده المرسلين، ولا شك أنهم من عباده الذين اصطفى مع ثنائه على نفسه بقوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، معلماً خلقه أن يشنوا عليه بذلك، وما ذكره هنا من حمده هذا الحمد العظيم، والسلام على رسوله الكرام، ذكره في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة النمل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ الآية [النمل: ٥٩]. ويشبه ذلك قوله تعالى: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَعَاجِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ص

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ . قرأه الجمهور: ﴿صَّ﴾ بالسكون منهم القراءة السبعة، والتحقيق أن ﴿صَّ﴾، من الحروف المقطعة في أوائل السورة كص في قوله تعالى: ﴿الْمَصَّ ﴿١﴾﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿كَيْهَيَّصَّ ﴿١﴾﴾ [مريم].

وقد قدّمنا الكلام مستوفى على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة هود، فأعنى ذلك عن إعادته هنا. وقد تطرق الشيخ إلى توجيه القراءات غير المتواترة في «ص» فليرجع من أراد الوقوف إلى كلامه إلى الأصل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، قد قدّمنا أن أصل القرآن مصدر، زيد فيه الألف والنون؛ كما زيدتا في الطغيان، والرجحان، والكفران، والخسران، وأن هذا المصدر أريد به الوصف.

وأكثر أهل العلم، يقولون: إن هذا الوصف المعبر عنه بالمصدر هو اسم المفعول. وعليه فالقرآن بمعنى المقروء، من قول العرب: قرأت الشيء إذا أظهرته وأبرزته، ومنه قرأت الناقة السلا والجنين؛ إذا أظهرته وأبرزته من بطنها، ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

تريك إذا دخلت على خلاء وقد أمنت عيون الكاشحين
ذراعي عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا
على إحدى الروائين في البيت.

ومعنى القرآن على هذا المقروء الذي يظهره القارئ، ويبرزه من فيه، بعبارته الواضحة.
وقال بعض أهل العلم: إنَّ الوصف المعبر عنه بالمصدر، هو اسم الفاعل.
وعليه فالقرآن بمعنى القارئ، وهو اسم فاعل قرأت، بمعنى جمعت.
ومنه قول العرب: قرأت الماء في الحوض أي جمعته فيه.
وعلى هذا فالقرآن بمعنى القارئ؛ أي الجامع؛ لأن الله جمع فيه جميع ما في
الكتب المنزلة.

وقوله تعالى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، فيه وجهان من التفسير معروفان عند العلماء:
أحدهما: أن الذكر بمعنى الشرف، والعرب تقول فلان مذكور يعنون له ذكر؛ أي شرف.
ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لِدِرْكَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي شرف لكم على أحد
القولين.

الوجه الثاني: أن الذكر اسم مصدر بمعنى التذكير؛ لأن القرآن العظيم فيه التذكير
والمواعظ، وهذا قول الجمهور، واختاره ابن جرير.

تنبيه: اعلم أن العلماء اختلفوا في تعيين الشيء الذي أقسم الله عليه في قوله
تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾، فقال بعضهم: إن المقسم عليه مذكور، والذين قالوا إنه
مذكور، اختلفوا في تعيينه وأقوالهم في ذلك كلها ظاهرة السقوط.

فمنهم من قال: إن المقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (١٤).
ومنهم من قال: هو قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ (٥٤).

ومنهم من قال: هو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ (١٤).
كقوله: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٩٧]. وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا
أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ (٢) أَلَجَمُ التَّائِقِ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) [الطارق].

ومنهم من قال: هو قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الشعراء: ٩٧]، ومن قال هذا
قال: إنَّ الأصل لكم أهلكننا ولما طال الكلام، حذف لام القسم، فقال: كم أهلكننا،
بدون لام.

قالوا: ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس]، لما طال الكلام
بين القسم والمقسم عليه، الذي هو قد أفلح من زكاها، حذف منه لام القسم.

ومنهم من قال: إن المقسم عليه من قوله: ﴿صَّ﴾ قالوا معنى: ﴿صَّ﴾ صدق
رسول الله ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾. وعلى هذا فالمقسم عليه هو صدقه ﷺ.

ومنهم من قال المعنى: هذه ﴿ص﴾ أي السورة التي أعجزت العرب، ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا يخفى سقوطها.

وقال بعض العلماء إنّ المقسم عليه محذوف، واختلفوا في تقديره، فقال الزمخشري في الكشاف، التقدير ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾. إنه لمعجز، وقدره ابن عطية وغيره فقال: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، ما الأمر كما يقوله الكفار، إلى غير ذلك من الأقوال.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر صوابه بدليل استقراء القرآن: أن جواب القسم محذوف وأنّ تقديره ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، ما الأمر كما يقوله الكفار، وأنّ قولهم المقسم على نفيه شامل لثلاثة أشياء متلازمة.

الأول: منها أنّ النبي ﷺ مرسل من الله حقاً وأنّ الأمر ليس كما يقول الكفار في قوله تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

والثاني: أنّ الإله المعبود - جلّ وعلا - واحد، وأنّ الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهم: ﴿أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

والثالث: أنّ الله - جلّ وعلا - يبعث من يموت، وأنّ الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]. وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣].

أما الدليل من القرآن على أنّ المقسم عليه محذوف فهو قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِيهِ﴾؛ لأنّ الإضراب بقوله بل، دليل واضح على المقسم عليه المحذوف. أي ما الأمر كما يقوله الذين كفروا، بل الذين كفروا في عزة، أي في حمية وأنفة واستكبار عن الحق، وشقاق، أي مخالفة ومعاندة.

وأما دلالة استقراء القرآن على أنّ المنفي المحذوف شامل للأمر الثلاثة المذكورة، فلدلالة آيات كثيرة: أما صحة رسالة الرسول ﷺ، وكون الإله المعبود واحداً لا شريك له؛ فقد أشار لهما هنا.

أما كون الرسول مرسلًا حقاً ففي قوله تعالى هنا: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ يعني: أي لا وجه للعجب المذكور لأنّ يجيء المنذر الكائن منهم، لا شك في أنّه بإرسال من الله حقاً.

وقولهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾. إنّما ذكره تعالى إنكاراً عليهم وتكذيباً لهم، فعرف بذلك أنّ في ضمن المعنى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾. إنك مرسل حقاً ولو عجبوا من مجيئك منذراً لهم، وزعموا أنك ساحر كذاب، أي فهم الذين عجبوا من الحق الذي لا شك فيه، وزعموا أنّ خاتم الرسل وأكرمهم على الله ساحر كذاب.

وأما كون الإله المعبود واحداً لا شريك له، ففي قوله هنا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾

إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴿١﴾؛ لأن الهمزة في قوله: ﴿أَجْعَلْ﴾. للإنكار المشتمل على معنى النفي، فهي تدل على نفي سبب تعجبهم من قوله ﷺ: إن الإله المعبود واحد.

وهذان الأمران قد دلت آيات آخر من القرآن العظيم، على أن الله أقسم على تكذيبهم فيها وإثباتها بالقسم صريحاً كقوله تعالى مقسماً على أن الرسول مرسل حقاً: ﴿يَسْ ۝ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [يس]، فهي توضح معنى: صَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

وقد جاء تأكيد صحة تلك الرسالة في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [البقرة]، وأما كونه تعالى هو المعبود الحق لا شريك له، فقد أقسم تعالى عليه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَالْقَلْبَ أَعْلَمُ بِمَا تُكْفِرُونَ ۝ فَالَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [الصافات] ونحو ذلك من الآيات. فدل ذلك على أن المعنى تضمن ما ذكر أي القرآن ذي الذكر، إن إلهكم لواحد كما أشار إليه بقوله: ﴿أَجْعَلِ الْأَهْلَةَ﴾ الآية.

وأما كون البعث حقاً، فقد أقسم عليه إقساماً صحيحاً صريحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَأُبْعَثَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، أي الساعة. وقوله: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣].

وأقسم على اثنين من الثلاثة المذكورة وحذف المقسم عليه الذي هو الاثنان المذكوران، وهي كون الرسول مرسلأً، والبعث حقاً، وأشار إلى ذلك إشارة واضحة، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدَ الْوَعْدِ ۝ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ نَبِيًّا قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۝ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ الَّذِي يَصْعَقُونَ فِيهِ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ عَاقِبَةٌ ۝ إِنَّ الْإِلَهَ لَاحِدٌ ۝ قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدَ الْوَعْدِ ۝﴾ [ق]، فاتضح بذلك أن المعنى ق والقرآن المجيد، إن المنذر الكائن منكم الذي عجبتم من مجيئه لكم منذراً، رسول منذر لكم من الله حقاً، وإن البعث الذي أنكرتموه واستبعدتموه غاية الإنكار، والاستبعاد، في قوله تعالى عنكم: ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ نَبِيًّا قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۝﴾، أي ذلك الرجوع الذي هو البعث؛ رجوع بعيد في زعمكم واقع لا محالة، وإنه حق لا شك فيه، كما أشار له في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدَ الْوَعْدِ ۝ قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدَ الْوَعْدِ ۝ وَنَعُوضُ الْأَرْضِ مِنْهُمْ ۝ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ۝﴾ [ق]، إذ المعنى أن ما أكلته الأرض من لحومهم، ومزقته من أجسامهم وعظامهم، يعلمه - جلّ وعلا -، لا يخفى عليه منه شيء؛ فهو قادر على رده كما كان.

وإحياء تلك الأجساد البالية، والشعور المتمزقة، والعظام النخرة، كما قدّمنا موضحاً بالآيات القرآنية، في سورة يس في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُفَيْخُ فِي الصُّورِ ۝ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝﴾ [يس]، وكونه ﷺ مرسل من الله حقاً، يستلزم استلزماً لا شك فيه، أن القرآن العظيم منزل من الله حقاً وأنه ليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين.

ولذلك أقسم تعالى، في مواضع كثيرة، على أن القرآن أيضاً منزل من الله؛ كقوله تعالى في أول سورة الدخان: ﴿حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۝﴾ الآية [الدخان: ١ - ٣]، وقوله تعالى في أول سورة الزخرف: ﴿حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّكُمْ فِي أُمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝﴾ [الزخرف].

وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِيهِ ۝﴾. قد قدمنا الكلام قريباً على الإضراب بيل في هذه الآية.

وقوله تعالى هنا ﴿فِي عِزِّهِمْ﴾، أي في حمية واستكبار عن قبول الحق، وقد بين - جلّ وعلا - في سورة البقرة أن من أسباب أخذ العزة المذكورة بالإثم للكفار أمرهم بتقوى الله، وبين أن تلك العزة التي هي الحمية والاستكبار عن قبول الحق من أسباب دخولهم جهنم، وذلك في قوله عن بعض الكفار الذين يظهرون غير ما يبطنون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ لَهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَيْسَ الْمُهَادُّونَ ۝﴾ [البقرة].

والظاهر أن وجه إطلاق العزة على الحمية والاستكبار: أن من اتصف بذلك كأنه ينزل نفسه منزلة الغالب، القاهر، وإن كان الأمر ليس كذلك؛ لأن أصل العزة في لغة العرب الغلبة والقهر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ۖ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ الآية [المنافقون: ٨]، والعرب يقولون: من عز بز، يعنون من غلب استلب، ومنه قول الخنساء:

كأن لم يكونوا حمى يختشى إذ الناس إذ ذاك من عز بزا
وقوله تعالى في الخصم الذين تسوروا على داود: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ ۝﴾، أي غلبني وقهرني في الخصومة.

والدليل من القرآن على أن العزة التي أثبتها الله للكفار في قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ ۝﴾... الآية. وقوله: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۝﴾ الآية [البقرة: ٢٠٦]، ليست هي العزة التي يراد بها القهر والغلبة بالفعل، أن الله خص بهذه العزة المؤمنين دون الكافرين والمنافقين، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ ۖ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ۖ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [المنافقون: ٨].

ولذلك فسرها علماء التفسير، بأنها هي الحمية والاستكبار عن قبول الحق. والشقاق: هي المخالفة والمعاندة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَمَا لَهُمْ فِي شِقَاقِي ۝﴾ الآية [البقرة: ١٣٧]. قال بعض العلماء: وأصله من الشق الذي هو الجانب؛ لأن المخالف المعاند، يكون في الشق؛ أي في الجانب الذي ليس فيه من هو مخالف له ومعاند. وقال بعض أهل العلم: أصل الشقاق من المشقة؛ لأن المخالف المعاند يجتهد في إيصال المشقة إلى من هو مخالف معاند. وقال بعضهم: أصل الشقاق من شق العصا؛ وهو الخلاف والتفرق.

قوله تعالى: ﴿كَرَّ أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلاَتَ حِينٍ مَنَاصٍ﴾ .

﴿كَرَّ﴾، هنا هي الخبرية، ومعناها الإخبار عن عدد كثير، وهي في محل نصب، على أنها مفعول به لأهلكنا وصيغة الجمع في أهلكنا للتعظيم، و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾، مميزة لكم، والقرن يطلق على الأمة وعلى بعض من الزمن، أشهر الأقوال فيه أنه مائة سنة، والمعنى أهلكنا كثيراً من الأمم السالفة من أجل الكفر وتكذيب الرسل، فعليكم أن تحذروا يا كفار مكة من تكذيب نبينا محمد ﷺ والكفر بما جاء به لئلا نهلككم بسبب ذلك كما أهلكنا به القرون الكثيرة الماضية.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أنه أهلك كثيراً من القرون الماضية، يهدد كفار مكة بذلك.

الثانية: أنهم نادوا؛ أي عند معاينة أوائل الهلاك.

الثالثة: أن ذلك الوقت الذي هو وقت معاينة العذاب ليس وقت نداء؛ أي فهو وقت لا ملجأ فيه، ولا مفر من الهلاك بعد معاينته.

وقد ذكر - جلّ وعلا - هذه المسائل الثلاث المذكورة هنا، موضحة في آيات كثيرة من كتابه.

أما المسألة الأولى: وهي كونه أهلك كثيراً من الأمم، فقد ذكرها في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ ... الآية [الحج: ٤٥]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ ... الآية [إبراهيم: ٩]. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في آيات كثيرة أن سبب إهلاك تلك الأمم الكفر بالله وتكذيب رسله كقوله في هذه الآية الأخيرة مبيناً سبب إهلاك تلك الأمم التي صرح بأنهم ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

وقد قدمنا في الكلام على هذه الآية من سورة إبراهيم، أقوال أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾، وبيننا دلالة القرآن على بعضها، وكقوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ [٨] فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [١] [الطلاق]. وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [٢٨] وَكُلًّا صَبَّأْنَاهُ لَلنَّاسِ الْآمَنَاتِ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا﴾ [الفرقان]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [٧٧]. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾

[ق: ١٤]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد بينَّ تعالى أن المراد بذكر إهلاك الأمم الماضية بسبب الكفر وتكذيب الرسل تهديد كفار مكة، وتخويفهم من أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك إن تمادوا على الكفر وتكذيبه ﷺ.

ذكر تعالى ذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾** ﴾ [محمد]، لأنَّ قوله تعالى: ﴿ **وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا** ﴾ [محمد: ١٠]، تهديد عظيم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿ **جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾** ﴾ [هود]. فقوله: ﴿ **وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾ فيه تهديد عظيم لمن يعمل عمل قوم لوط من الكفر وتكذيب نبيهم، وفواحشهم المعروفة، وقد وبخ تعالى من لم يعتبر بهم، ولم يحذر أن ينزل به مثل ما نزل بهم، كقوله في قوم لوط: ﴿ **وَلَنْتَكُونُ لِلنَّارِ عَنَّا مُمْسِكِينَ ﴿٨٧﴾** ﴾ **وَبِالْبَيْتِ الْأَيْمَنِ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهَذَا كَفْرًا كَبِيرًا ﴿٨٨﴾** ﴾ [الصافات]. وقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مِنْ السَّمَاءِ عَلَيْهَا مِثْرًا مِمَّا يَخْلُقُ الْإِنْسَانَ لَقَوْمٍ مُعَذِّبِينَ ﴿٩٠﴾** ﴾ [الفرقان]. وقوله فيهم: ﴿ **وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٩٥﴾** ﴾ [العنكبوت]. وقوله فيهم: ﴿ **وَلِيُنذِرَ الَّذِينَ يَخْلَفُونَ ﴿٩٦﴾** ﴾ [الحجر]. وقوله فيهم وفي قوم شعيب: ﴿ **وَأَنْهَمَا لِإِيمَانٍ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾** ﴾ [الحجر: ٧٩]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأما المسألة الثانية: وهي نداؤهم إذا أحسوا بأوائل العذاب؛ فقد ذكر تعالى في آيات من كتابه نوعين من أنواع ذلك النداء:

أحدهما: نداؤهم باعترافهم أنهم كانوا ظالمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾** ﴾ **فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَاسِهَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾** ﴾. إلى قوله: ﴿ **قَالُوا يَا بُولَاقَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾** ﴾ **فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِئِينَ ﴿١٥﴾** ﴾ [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿ **وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤٤﴾** ﴾ **فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسَاسُ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّآ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٥﴾** ﴾ [الأعراف].

الثاني: من نوعي النداء المذكور؛ نداؤهم بالإيمان بالله مستغِيثين من ذلك العذاب الذي أحسوا أوائله، كقوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسَاسًا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾** ﴾ **فَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسَاسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾** ﴾ [غافر]، وهذا النوع الأخير هو الأنسب والأليق بالمقام، لدلالة قوله: ﴿ **وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٨٦﴾** ﴾ عليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ **وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٨٦﴾** ﴾ الذي هو المسألة الثالثة، معناه: ليس الحين الذي نادوا فيه، وهو وقت معاينة العذاب، حين مناص، أي ليس حين فرار ولا ملجأ من ذلك العذاب الذي عاينوه.

فقوله: ﴿ **وَلَاتَ ﴿٨٦﴾** ﴾ هي لا النافية زيدت بعدها تاء التانيث اللفظية كما زيدت في ﴿ **ثُمَّ ﴿٨٧﴾** ﴾، فقيل فيها «ثمت»، وفي ﴿ **رَبِّ ﴿٨٨﴾** ﴾، فقيل فيها «ربت».

وأشهر أقوال النحويين فيها، أنها تعمل عمل ليس وأنها لا تعمل إلا في الحين خاصة، أو في لفظ الحين ونحوه من الأزمنة، كالساعة والأوان، وأنها لا بد أن يحذف اسمها أو خبرها، والأكثر حذف المرفوع منهما وإثبات المنصوب، وربما عكس، وهذا قول سيبويه، وأشار إليه ابن مالك في الخلاصة بقوله:

في النكرات أعملت كليس «لا» وقد تلي «لات» و«إن» ذا العملا
وما للات في سوى حين عمل وحذف ذي الرفع فشا والعكس قل

والمناص مفعول من النوص، والعرب تقول: ناصه ينوصه إذا فاته وعجز عن إدراكه، ويطلق المناص على التأخر؛ لأن من تأخر ومال إلى ملجأ ينقذه مما كان يخافه فقد وجد المناص.

والمناص والملجأ والمفر والموئل معناها واحد، والعرب تقول: استناص إذا طلب المناص، أي السلامة والمفر مما يخافه، ومنه قول حارثة بن بدر:

غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدي استناص ورام جري المسحل

والأظهر أن إطلاق النوص على الفوت والتقدم، وإطلاقه على التأخر والروغان كلاهما راجع إلى شيء واحد؛ لأن المناص مصدر ميمي معناه المنطبق على جزئياته، أن يكون صاحبه في كرب وضيق، فيعمل عملاً يكون به خلاصه ونجاته من ذلك.

فتارة يكون ذلك العمل بالجري والإسراع أمام من يريده بالسوء، وتارة يكون بالتأخر والروغان حتى ينجو من ذلك.

والعرب تطلق النوص على التأخر. والبوص بالباء الموحدة التحتية على التقدم، ومنه قول امرئ القيس:

أمن ذكر سلمى إذ نأتك تنوص فتقصر عنها خطوة وتبوص

وأصوب الأقوال في «لات» أن التاء منفصلة عن حين وأنها تعمل عمل ليس خلافاً لمن قال: إنها تعمل عمل إن، ولمن قال: إن التاء متصلة بحين وأنه رآها في الإمام وهو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه متصلة بها.

وعلى قول الجمهور منهم القراء السبعة، أن التاء ليست موصولة بحين، فالوقف على «لات» بالتاء عند جميعهم، إلا الكسائي فإنه يقف عليها بالهاء.

أما قراءة كسر التاء وضمتها فكلتاها شاذة لا تجوز القراءة بها، وكذلك قراءة كسر النون من حين، فهي شاذة لا تجوز، مع أن تخريج المعنى عليها مشكل.

وتعسف له الزمخشري وجهاً لا يخفى سقوطه، وردده عليه أبو حيان في البحر المحيط، واختار أبو حيان أن تخريج قراءة الكسر أن حين مجرورة بمن محذوفة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَنَادُوا﴾ أصل النداء: رفع الصوت؛ والعرب تقول: فلان أندى صوتاً من فلان، أي أرفع، ومنه قوله:

فقلت ادعي وأدعو إن أندأ لصوت أن ينادي داعيان
وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الأمم الماضية المهلكة ينادون عند معاينة
العذاب، وأن ذلك الوقت ليس وقت نداء، إذ لا ملجأ فيه ولا مفر ولا مناص. ذكره
في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا
كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الآية [غافر: ٨٤، ٨٥]. وقوله
تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (٧٢) ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَيَّ مَا أَتَرَفْتُمْ فِيهِ
وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ﴾ (٧٣) ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٧٤) ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ
حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ (٧٥) [الأنبياء]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين تعالى وقوع مثل ذلك في يوم القيامة في آيات من كتابه كقوله تعالى:
﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ
مِنْ نَكِيرٍ﴾ (٤٧) [الشورى]. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرَأَ أَبْصَرُ﴾ (٧) ﴿وَحَسَفَ أَلْفَمْرُ﴾ (٨) ﴿وَجَمَعَ أَلْتَمْسُ
وَأَلْفَمْرُ﴾ (٩) ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ﴾ (١٠) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١١) [القيامة]، والوزر: الملجأ، ومنه
قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

والناس إلب علينا فيك ليس لنا
إلا الرماح وأطراف القنا وزر
وكقوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْبِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]، والموئل؛
اسم مكان من وأل يئل إذا وجد ملجأ يعتصم به، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس:
وقد أخالس رب البيت غفلته
وقد يحاذر مني ثم ما يئل
أي ثم ما ينجو.

قوله تعالى: ﴿وَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة
أن كفار قريش عجبوا من أجل أن جاءهم رسول منذر منهم، وما ذكره - جلّ وعلا - في
هذه الآية الكريمة، من عجبهم المذكور، ذكره في غير هذا الموضع وأنكره عليهم،
وأوضح تعالى سببه ورده عليهم في آيات أخر، فقال في عجبهم المذكور: ﴿قَبَّ وَالْقُرْءَانِ
الْمَجِيدِ﴾ (١) ﴿بَلْ جِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ق: ١ - ٢].

وقال تعالى في إنكاره عليهم في أول سورة يونس ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) أَكَانَ
لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ١، ٢]، وذكر مثل عجبهم المذكور
في سورة الأعراف، عن قوم، نوح وقوم هود، فقال عن نوح مخاطباً لقومه: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ
جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣) [الأعراف].

وقال عن هود مخاطباً لعاد: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ
لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ الآية [الأعراف: ٦٩]، وبين أن سبب
عجبهم من كون المنذر منهم أنه بشر مثلهم زاعمين أن الله لا يرسل إليهم أحداً من
جنسهم. وأنه لو أراد أن يرسل إليهم أحداً لأرسل إليهم ملكاً؛ لأنه ليس بشراً مثلهم
وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يمشي في الأسواق.

والآيات في ذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٤٤﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْسُوكَ مَلَأْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء]. وقوله تعالى: ﴿أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِِقَاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرْتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا... الآية [التغابن: ٦]. وقوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدَىٰ ﴿٣٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ الآية [إبراهيم: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَفُصِّحَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت]. وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١﴾ لَوْ مَا قَاتَيْنَا بِالمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِّلُ المَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحجر]. وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا المَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿١١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ المَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ الآية [الفرقان: ٢١، ٢٢]. وقوله تعالى عن فرعون مع موسى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف].

وقد ردَّ الله تعالى على الكفار عجبهم من إرسال الرسل من البشر في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، أي بالرسالة والوحي ولو كان بشراً مثلكم. إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا نَحْنُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِكُمْ﴾. قد قدمنا الكلام عليه

في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءِلهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن كفار مكة، أنكروا أن الله خص نبيه محمداً ﷺ بإنزال القرآن عليه وحده، ولم ينزله على أحد آخر منهم، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء في آيات أخر، مع الرد على الكفار في إنكارهم خصوصه ﷺ بالوحي، كقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْبِينَ عَظِيمٍ﴾ (٣١)، يعنون بالقريتين مكة والطائف، وبالرجلين من القريتين الوليد بن المغيرة في مكة، وعروة بن مسعود في الطائف، زاعمين أنهما أحق بالنبوة منه. وقد رد - جلّ وعلا - ذلك عليهم في قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] لأنّ الهمزة في قوله: أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ، للإنكار المشتمل على معنى النفي، وكقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد رد الله تعالى ذلك عليهم في قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وأشار إلى رد ذلك عليهم في آية ص هذه في قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُفُّوا عَنَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا...﴾ الآية؛ لأنه لا يجعل الرسالة حيث يشاء، ويخص بها من يشاء، إلا من عنده خزائن الرحمة، وله ملك السموات والأرض.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾، قد بيّن في موضع آخر أنّ ثمود قالوا مثله لنبي الله صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿أَلَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴿١٥﴾﴾ وقد رد الله تعالى ذلك في قوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْآشِرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. قد قدّمنا بعض الكلام عليه في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [الحجر].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿٢٢﴾ وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿٢٣﴾﴾ إنّ كلّ إلاً كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿٢٤﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكْذِبُواكَ فَدَعْ كَذِبَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ﴾ الآية [الحج: ٤٢]. وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]. وفي سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ الآية [يونس: ٥١]. وفي سورة الرعد

في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الآية [الرعد: ٦]. وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾. [الحج: ٤٧].

وقد قدّمنا أن القط: النصيب من الشيء، أي عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدنا به. وأن أصل القط كتاب الجائزة؛ لأن الملك يكتب فيه النصيب الذي يعطيه لذلك الإنسان، وجمعه قطوط، ومنه قول الأعشى:

ولا الملك النعمان حين لقيته بغبطته يعطي القطوط ويأفق

وقوله: ويأفق أي يفضل بعضهم على بعض في العطاء المكتوب في القطوط.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَحَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾. إلى قوله: ﴿أَوَّابٌ﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له، في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَحَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُ وَالطَّيْرُ﴾ الآية [الأنبياء: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿وَطَرًا دَاوُدُ أَمَّا فَدَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾.

قد قدّمنا الكلام على مثل هذه الآية، من الآيات القرآنية التي يفهم منها صدور بعض الشيء من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وبيننا كلام أهل الأصول في ذلك في سورة طه، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].

واعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة، مما لا يليق بمنصب داوود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كله راجع إلى الإسرائيليات، فلا ثقة به، ولا معول عليه، وما جاء منه مرفوعاً إلى النبي ﷺ لا يصح منه شيء.

قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾، قد بينا الحكم الذي دل عليه في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾... الآية [البقرة: ٣٠].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾،

قد أمر نبيه داود فيه بالحكم بين الناس بالحق، ونهاه فيه عن اتباع الهوى، وأن اتباع الهوى علة للضلال عن سبيل الله، لأن الفاء في قوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، تدل على العلية.

وقد تقرر في الأصول، في مسلك الإيماء والتنبيه، أن الفاء من حروف التعليل

كقوله: سها فسجد، وسرق فقطعت يده، أي لعله السهو في الأول، ولعله السرقة في الثاني، وأتبع ذلك بالتهديد الشديد لمن اتبع الهوى، فأضله ربنا عن سبيل الله في قوله تعالى بعده يليه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَا سَأَوْا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

ومعلوم أن نبي الله داوود، لا يحكم بغير الحق، ولا يتبع الهوى فيضله عن

سبيل الله، ولكن الله تعالى يأمر أنبياءهم الصلاة والسلام، وينهاهم؛ ليشرع لأمرهم.

ولذلك أمر نبينا ﷺ، بمثل ما أمر به داود، ونهاه أيضاً عن مثل ذلك في آيات من

كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ عَائِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾ . . . الآية [الكهف: ٢٨].

وقد قدّمنا الكلام على هذا، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

وبيّنا أن من أصرح الأدلة القرآنية الدالة على أن النبي ﷺ يخاطب بخطاب، والمراد بذلك الخطاب غيره يقيناً؛ قوله تعالى: ﴿وَفَضَىٰ رُبُّكَ آلا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا﴾ الآية [الإسراء: ٢٣]، ومن المعلوم أن أباه ﷺ توفي قبل ولادته، وأن أمه ماتت وهو صغير، ومع ذلك فإن الله يخاطبه بقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣]، ومعلوم أنه لا يبلغ عنده الكبر أحدهما ولا كلاهما؛ لأنهما قد ماتا قبل ذلك بزمان.

فتبين أن أمره تعالى لنبيه ونهيه له في قوله: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [٢٢] وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ الآية [الإسراء: ٢٣، ٢٤]: إنما يراد به التشريع على لسانه لأُمَّته، ولا يراد به هو نفسه ﷺ، وقد قدّمنا هناك أن من أمثال العرب: إياك أعني واسمعي يا جارة، وذكرنا في ذلك رجز سهل بن مالك الفزاري الذي خاطب به امرأة، وهو يقصد أخرى وهي أخت حارثة بن لأم الطائي وهو قوله:

يا أخت خير البدو والحضاره

كيف ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حرة معطاره

إياك أعني واسمعي يا جاره

وذكرنا هناك الرجز الذي أجابته به المرأة.

وقول بعض أهل العلم إن الخطاب في قوله: ﴿إِمَّا يَلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ . . . الآية [الإسراء: ٢٣]، هو الخطاب بصيغة المفرد، الذي يراد به عموم كل من يصح خطابه. كقول طرفة بن العبد في معلقته:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

أي ستبدي لك ويأتيك أيها الإنسان الذي يصح خطابك، وعلى هذا فلا دليل في الآية: غير صحيح، وفي سياق الآيات قرينة قرآنية واضحة دالة على أن المخاطب بذلك هو النبي ﷺ، وعليه فالاستدلال بالآية استدلال قرآني صحيح، والقرينة القرآنية المذكورة، هي أنه تعالى قال في تلك الأوامر والنواهي التي خاطب بها رسوله ﷺ،

التي أولها: ﴿وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا ۖ إِنَّمَا يُبَلِّغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾ . . . الآية [الإسراء: ٢٣]. ما هو صريح في أن المخاطب بذلك هو النبي ﷺ، لا عموم كل من يصح منه الخطاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ . . . قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وفي آخر سورة قد أفلح المؤمنون. في الكلام على قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ . الإشارة في قوله ﴿ذَلِكَ﴾ راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي، ذلك أي خلقنا السماوات والأرض باطلاً هو ظن الذين كفروا بنا، والنفي في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾، منصب على الحال لا على عاملها الذي هو خلقنا؛ لأن المنفي بأداة النفي التي هي ما: ليس خلقه للسماوات والأرض، بل هو ثابت، وإنما المنفي بها، هو كونه باطلاً، فهي حال شبه العمدة وليست فضلة صريحة؛ لأن النفي منصب عليها هي خاصة، والكلام لا يصح دونها. والكلام في هذا معلوم في محله، ونفي كونه خلقه تعالى للسماوات والأرض باطلاً نزه عنه نفسه ونزاه عنه عباده الصالحون؛ لأنه لا يليق بكماله وجلاله تعالى. أما تنزيهه نفسه عنه ففي قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون].

ثم نزه نفسه عن كونه خلقهم عبثاً، بقوله تعالى: ﴿فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ [المؤمنون]، أي تعالى وتقدس وتنزه عن كونه خلقهم عبثاً. وأما تنزيه عباده الصالحين له عن ذلك، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِهِمْ وَسَيُكَرَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ [آل عمران]، فقوله تعالى عنهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، أي تنزيهاً لك، عن أن تكون خلقت السماوات والأرض باطلاً. فقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، تنزيه له، كما نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى: ﴿فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ . . . الآية [المؤمنون: ١١٦].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾، يدل على أن من ظن بالله ما لا يليق به - جلّ وعلا -، فله النار.

وقد بين تعالى في موضع آخر أن من ظن بالله ما لا يليق به أرداه وجعله من الخاسرين، وجعل النار مشواه. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَيْبَرًا ۖ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٢٢] وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكَمُ فَاصْبِحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ . . . الآية [فصلت: ٢٢ - ٢٤].

وقولنا في أول هذا المبحث الإشارة في قوله ﴿ذَلِكَ﴾ راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي؛ قد قدمنا إيضاحه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وبيننا هناك أن الفعل نوعان، أحدهما الفعل الحقيقي، والثاني الفعل الصناعي، أما الفعل الحقيقي، فهو الحدث المتجدد المعروف عند النحويين بالمصدر. وأما الفعل الصناعي، فهو المعروف في صناعة علم النحو بالفعل الماضي، والفعل المضارع، وفعل الأمر، على القول بأنه مستقل عن المضارع.

ومعلوم أنّ الفعل الصناعي ينحل عند النحويين عن مصدر وزمن، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كأمن من أمن

وعند جماعات من البلاغيين، أنه ينحل عن مصدر، وزمن، ونسبة، وهو الأقرب، كما حرره بعض علماء البلاغة في مبحث الاستعارة التبعية، وبذلك تعلم أنه لا خلاف بينهم في أن المصدر، والزمن كامنان في الفعل الصناعي، فيصح رجوع الإشارة والضمير إلى كل من المصدر والزمن الكامنين في الفعل الصناعي.

فمثال رجوع الإشارة إلى المصدر الكامن في الفعل، قوله هنا: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الآية، فإن المصدر الذي هو الخلق، كامن في الفعل الصناعي، الذي هو الماضي في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ﴾، أي خلق السماوات المذكور الكامن في مفهوم خلقنا، ظن الذين كفروا.

ومثال رجوع الإشارة إلى الزمن الكامن في مفهوم الفعل الصناعي، قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ﴾ [ق]، أي ذلك الزمن الكامن في الفعل هو يوم الوعيد. ومثال رجوع الضمير للمصدر الكامن في مفهوم الفعل قوله تعالى: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]. فقوله: هو، أي العدل الكامن في مفهوم اعدلوا، كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [٢٨]. ﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ﴾، وقوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ﴾ كلاتهما، منقطعة وأم المنقطعة، فيها لعلماء العربية ثلاثة مذاهب:

الأول: أنها بمعنى همزة استفهام الإنكار.

الثاني: أنها بمعنى بل الإضرابية.

والثالث: أنها تشمل معنى الإنكار والإضراب معاً، وهو الذي اختاره بعض المحققين.

وعليه فالإضراب بها هنا انتقالي لا إبطالي، ووجه الإنكار بها عليهم واضح؛ لأن من ظن بالله الحكيم الخبير، أنه يساوي بين الصالح المصلح، والمفسد الفاجر، فقد ظن ظناً قبيحاً جديراً بالإنكار.

وقد بين - جلّ وعلا - هذا المعنى في غير هذا الموضع، ودم حكم من يحكم به، وذلك في قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾. قوله تعالى: ﴿كَتَبَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب، وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه أنزل هذا الكتاب، معظماً نفسه - جلّ وعلا - بصيغة الجمع، وأنه كتاب مبارك، وأن من حكم إنزاله أن يتدبر الناس آياته، أي يتفهموها ويتعقلوها ويمعنوا النظر فيها، حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى، وأن يتذكر أولوا الأبواب؛ أي يتعظ أصحاب العقول السليمة، من شوائب الاختلال. وكل ما ذكره في هذه الآية الكريمة جاء واضحاً في آيات آخر.

أما كونه - جلّ وعلا - هو الذي أنزل هذا القرآن، فقد ذكره في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴿٣﴾﴾ [الدخان: ٣]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ تُحَكِّمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما كون هذا الكتاب مباركاً، فقد ذكره في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]. وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام]. والمبارك: كثير البركات من خير الدنيا والآخرة.

ونرجو الله القريب المجيب، إذ وفقنا لخدمة هذا الكتاب المبارك، أن يجعلنا مباركين أينما كنا، وأن يبارك لنا وعلينا، وأن يشملنا ببركاته العظيمة في الدنيا والآخرة. وأن يعم جميع إخواننا المسلمين الذين يأترون بأوامره، بالبركات والخيرات، في الدنيا والآخرة إنه قريب مجيب.

وأما كون تدبر آياته من حكم إنزاله: فقد أشار إليه في بعض الآيات، بالتحضيض على تدبره، وتوبيخ من لم يتدبره، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْئَالُهَا ﴿٧٤﴾﴾ [محمد]. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء]. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون].

وأما كون تذكر أولي الأبواب من حكم إنزاله، فقد ذكره في غير هذا الموضع، مقترناً ببعض الحكم الأخرى التي لم تذكر في آية ص هذه، كقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِدٌ وَلِيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٧﴾﴾ [إبراهيم]، فقد بين في هذه الآية الكريمة، أن تذكر أولي الأبواب من حكم إنزاله، مبيناً

منها حكمتين آخرين من حكم إنزاله، وهما إنذار الناس به، وتحقيق معنى لا إله إلا الله، وكون إنذار الناس وتذكر أولي الألباب من حكم إنزاله، ذكره في قوله تعالى: ﴿الْمَصِّ ۝ كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الأعراف: ١، ٢]، لأن اللام في قوله لتنذر متعلقة بقوله: أنزل، والذكرى اسم مصدر بمعنى التذكير، والمؤمنون في الآية لا يخفى أنهم هم أولوا الألباب.

وذكر حكمة الإنذار في آيات كثيرة كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝﴾ [الفرقان]. وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِتُنذِرَ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۝﴾ [الأنعام: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝﴾ [التنوير] ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ۝﴾ الآية [يس: ٥، ٦]. وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ۝﴾ ... الآية [يس: ٧٠].

وذكر في آيات أخر أن من حكم إنزاله: الإنذار والتبشير معاً، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ۝﴾ [مريم]. وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا ۝﴾ [الكهف: ١، ٢].

وبين - جلّ وعلا - أنّ من حكم إنزاله أن يبين ﷺ للناس ما أنزل إليهم ولأجل أن يتفكروا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ [النحل: ٤٤].

وقد قدّمنا مراراً كون «لعلّ» من حروف التعليل، وذكر حكمة التبيين المذكورة مع حكمة الهدى والرحمة، في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [النحل].

وبين أن من حكم إنزاله، تثبيت المؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝﴾ [النحل].

وبين أنّ من حكم إنزاله إلى النبي ﷺ، أن يحكم بين الناس بما أراه الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۝﴾ [النساء: ١٠٥].

والظاهر أنّ معنى قوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۝﴾، أي بما علمك من العلوم في هذا القرآن العظيم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا مَّهْدًى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۝﴾ الآية [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿تَحَنَّنْ نَفْسٌ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْفَصْصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝﴾ [يوسف].

وبين - جلّ وعلا - أنّ من حكم إنزاله: إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك في قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۝﴾ [إبراهيم: ١].

وَيَبِّنُ أَنْ مِنْ حِكْمِ إِزْوَاجِ التَّذْكَرَةِ لِمَنْ يَخْشَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿طه ١١١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١١٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿١١٣﴾ [طه]؛ أي ما أنزلناه إلا تذكرة لمن يخشى . وهذا القصر على التذكرة إضافي، وكذلك القصر في قوله تعالى الذي ذكرناه قبل هذا: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ الآية [النحل: ٦٤]، بدليل الحكم الأخرى التي ذكرناها .

وَيَبِّنُ أَنْ مِنْ حِكْمِ إِزْوَاجِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَتَصْرِيفًا لِلَّهِ فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْوَعِيدِ: أَنْ يَتَّقِيَ النَّاسَ اللَّهَ، أَوْ يَحْدِثَ لَهُمْ هَذَا الْكِتَابَ ذِكْرًا؛ أَيْ مَوْعِظَةً وَتَذَكُّرًا، يَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذِرُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١١٣﴾ [طه] . والعلم عند الله تعالى .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةَ، أَنَّهُ وَهَبَ سُلَيْمَانَ لِدَاوُدَ، وَقَدْ بَيَّنَّ فِي سُورَةِ النَّمْلِ، أَنَّ الْمَوْهُوبَ وَرَثَ الْمَوْهُوبِ لَهُ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] .

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي سُورَةِ مَرْيَمَ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ زَكْرِيَّا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ﴿١٢٨﴾ يَرْثِي وَيُورِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴿١٢٩﴾ الْآيَةَ [مريم: ٥، ٦]، أَنَّهَا وَرَاثَةٌ عِلْمٌ وَدِينٌ لَا وَرَاثَةَ مَالٍ . قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ قَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ، وَعَلَى مَا يَذْكُرُهُ الْمَفْسُرُونَ فِيهَا مِنَ الرِّوَايَاتِ الَّتِي لَا يَخْفَى سَقُوطُهَا، وَأَنَّهَا لَا تَلِيْقُ بِمَنْصَبِ النَّبِيِّ، فِي سُورَةِ الْكَهْفِ فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿٢٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٢٢٤﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] . وَمَا رَوَى عَنْهُ مِنَ السَّلْفِ مِنْ جَمَلَةِ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ، أَنَّ الشَّيْطَانَ أَخَذَ خَاتَمَ سُلَيْمَانَ، وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَطَرَدَ سُلَيْمَانَ إِلَى آخِرِهِ، يُوَضِّحُ بَطْلَانَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أَتْبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿٤١﴾ [الحجر] . وَاعْتَرَفَ الشَّيْطَانُ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ [الحجر] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ ﴿٣١﴾ .

قَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهِ مُوضِحًا بِالآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ . . . الْآيَةَ [الأنباء: ٨١] .

وَفَسَّرْنَا هُنَا قَوْلَهُ هُنَا: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ وَذَكَرْنَا هُنَا أَوْجَعَ الْجَمْعَ بَيْنَ قَوْلِهِ هُنَا: ﴿رُخَاءً﴾ وَقَوْلِهِ هُنَا: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنباء: ٨١]، وَوَجْهَ الْجَمْعِ أَيْضًا بَيْنَ عُمُومِ الْجِهَاتِ الْمَفْهُومِ مِنْ قَوْلِهِ هُنَا: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾، أَيْ حَيْثُ أَرَادَ، وَبَيْنَ خُصُوصِ الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ الْمَذْكُورِ هُنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ . . . الْآيَةَ [الأنباء: ٨١] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّيْطَانَ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ ﴿٣٧﴾ قَدْ قَدَّمْنَا إِضْحَاحَهُ بِالآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوُصُّوكُمْ لَمْ يَعْمَلُوكُمْ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ [الأنباء] .

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَلَيْسَ لِي بِمَسْنِيٍّ الشَّيْطَانُ يُصِيبُ وَعَدَابُ رَبِّي﴾ إلى قوله: ﴿لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾. فدقّمنا إيضاحه بالآيات القرآنية مع التعرض لإزالة ما فيه من الإشكال في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَذِكْرَى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة، أن يذكر عبده إبراهيم، ولم يقيد ذلك الذكر بكونه في الكتاب، مع أنه قيده بذلك في سورة مريم، في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [٤١]... الآية [مريم].

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ أطلق هنا أيضاً الأمر بذكر إسماعيل، وقيده في سورة مريم بكونه في الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ الآية [مريم: ٥٤]، وفي ذلك إشارة إلى أنه ﷺ مأمور أيضاً بذكر جميع المذكورين في الكتاب؛ ولذلك جاء ذكرهم كلهم في القرآن العظيم كما لا يخفي.

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾. قد دقّمنا الكلام عليه في سورة الصافات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ عِزًّا﴾ [الصافات].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقًا مَّا لَهُم مِّن نَّفَادٍ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن نعيم الجنة لا نفاذ له، أي لا انقطاع له ولا زوال، ذكره - جلّ وعلا - في آيات أخر كقوله تعالى فيه: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٨]. وقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾. قد دقّمنا ما يوضحه من الآيات القرآنية في مواضع متعددة، من هذا الكتاب المبارك، ذكرنا بعضها في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾... الآية [البقرة: ١٦٦]، وذكرنا بعضه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾... الآية [الأعراف: ٣٨]. وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾. قد تقدم إيضاحه مع بعض المباحث في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ السُّجُوتِ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾. قد دقّمنا الآيات الموضحة له في سورة هود، وذكرنا الأحكام المتعلقة بالآيات، في الكلام على قوله تعالى عن نبيه نوح: ﴿وَيَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلْنَا عَلَيْهِ مَالًا لَّوَجَدْنَا عِلْمَ لُوطٍ وَإِنَّا لَنَجِدُهُمُ كٰفِرِينَ﴾... الآية [هود: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾. الحين المذكور هنا، قال بعض العلماء: المراد به بعد الموت، ويدل له ما دقّمنا في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر].

وقال بعض العلماء: الحين المذكور هنا، هو يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ لأن الإنسان بعد الموت تتبين له حقائق الهدى والضلال.

واللام في ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ﴾ موطئة للقسم، وقد أكد في هذه الآية الكريمة أنهم سيعلمون نبأ القرآن؛ أي صدقه وصحة جميع ما فيه بعد حين بالقسم، ونون التوكيد.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بأنهم سيعلمون نبأه بعد حين، قد أشار إليه تعالى في سورة الأنعام، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَلٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام].

قال غير واحد من العلماء: ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]، أي لكل خبر حقيقة ووقوع، فإن كان حقاً تبين صدقه ولو بعد حين، وإن كان كذباً تبين كذبه، وستعلمون صدق هذا القرآن ولو بعد حين.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزمر

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾. قد دل استقراء القرآن العظيم، على أن الله - جلّ وعلا - إذا ذكر تنزيله لكتابه، أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنی، المتضمنة صفاته العليا.

ففي أول هذه السورة الكريمة، لما ذكر تنزيله كتابه، بين أن مبدأ تنزيله كائن منه - جلّ وعلا -، وذكر اسمه الله، واسمه العزيز، والحكيم، وذكر مثل ذلك في أول سورة الجاثية، في قوله تعالى: ﴿حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الجاثية]، وفي أول سورة الأحقاف في قوله تعالى: ﴿حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ١ - ٣].

وقد تكرر كثيراً في القرآن ذكره بعض أسمائه وصفاته، بعد ذكر تنزيل القرآن العظيم، كقوله في أول سورة غافر: ﴿حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ غَافِرِ الدَّنُوبِ وِقَابِلِ النَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾﴾ [غافر]، وقوله تعالى في أول فصلت: ﴿حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت]. وقوله تعالى في أول هود: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ فَصَلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود]، وقوله في فصلت: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]. وقوله تعالى في صدر يس ﴿تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا